الدور الحضاري للدين

دراسة تحليلية لمفهوم ودور "الفكرة الدينية المركبة" عند مالك بن نبي

د. بدران بن لحسن/ كلية الدراسات الاسلامية/ جامعة حمد بن خليفة / قطر

ملخص باللغة العربية:

يعتبر الدين من المفاهيم الأساسية في فكر مالك بن نبي. ومن الأدوات التحليلية التي تميز منظوره الحضاري، ووظفها في دراسة ظاهرة الحضارة في قيامها وسقوطها، وقد أطلق عليه اسم (الفكرة الدينية). والفكرة الدينية في نظره، هي الفكرة المركّبة، التي تعمل على التفاعل بين العناصر الأولية للحضارة.

ولتناول دور الدين في بناء الحضارة عند بن نبي فإن هذه الورقة البحثية تتناول: مفهومه للحضارة، ثم مفهومه للدين، ثم رؤيته للدور الذي يقوم به الدين في البناء الحضاري، وذلك للوصول إلى تحديد مفهوم الفكرة الدينية التي تحدث عنها ابن نبي وأعطاها دورًا مهمًا في بناء الحضارة.

وقد توصلت الورقة البحثية إلى أن ابن نبي يستعمل مفهوم الدين باعتباره سنة كونية وتاريخية وقانونا يحكم الفكر، تلك السنة التي فطر الله عليها الإنسان، وأن الدين هو المركب الحقيقي للقيم الحضارية من خلال توفير الوسط الذي يتشكل فيه أنا الفرد والمجموع، ومن خلال تدخل الدين في تنظيم فكر الإنسان وتوجيه طاقاته إلى غايات ما وراء أرضية (أخروية)، بتجسيد العلاقة الروحية بين الله والإنسان في صورة علاقة اجتماعية، وكذلك من خلال توفير القانون الأخلاقي الذي يمنح قيمة لما يقوم به الإنسان وما يحياه.

English Abstract:

Religion is one of the basic concepts in Malik Bennabi's thought, and analytical tools that characterize his civilizational perspective. He applied it in the study of civilization in its rise and fall course. He called it (the religious idea), which is – in his point of view- the catalyzer that provide the atmosphere for the interaction between the primary elements of civilization.

To discuss the role of religion in civilization building according to Bennabi, this paper addresses; his concepts of civilization and religion, then his view of the role played by religion in civilization building, so as to define the concept of the religious idea which Bennabi developed and gave it an important role in civilization building.

The research paper found that Bennabi conceptualized religion as a cosmic and historical pattern and law that governs thought. Moreover, it is *fitrah* (Innate nature) that Allah has created people upon it. In addition, religion alone is the catalyst of the civilizational values by providing the atmosphere in which the individual and community ego, and by its intervention in the organization of human thought and directing its energies to purposes beyond the daily life (hereafter) through realization of the spiritual relationship between Allah and human being in the social relationship forms, as well as through the provision of the moral law, which gives value to what a person does and lives.

جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي © 2015

مقدمة:

قدم المفكر الجزائري مالك بن نبي أطروحته في معالجة مشكلات الحضارة بطريقة تميزه عن غيره، حيث أنه استفاد من تراث السابقين عليه، لكنه بنى منظورا لدراسة الحضارة لا يمكن تسميته إلا منظور ابن نبي.

وفي مشروعه الفكري قدم رؤيته الحضارية، ومفاهيمه، وطرق تحليله لمشكلات الحضارة، وقدم حلولا نظرية لما كان يراه أنه ينبغي التركيز عليه من أجل استعادة الحضارة الاسلامية دورها في التاريخ.

وتهدف هذه الورقة البحثية إلى الاهتمام بالدين و"الفكرة الدينية" عند بن نبي، وتحاول أن تقوم بتحليل وجهة نظر بن نبي ومفهومه للدين، ودوره الحضاري. ذلك أن الدين يعتبر من المفاهيم الأساسية في فكر مالك بن نبي، كما يعتبر من الأدوات التحليلية التي تميز منظوره الحضاري، والتي وظفها في دراسة وتحليل ظاهرة الحضارة في قيامها وسقوطها، وكذا التغير الاجتماعي، وقد أطلق عليه اسم (الفكرة الدينية)[1]. والفكرة الدينية في نظره، هي الفكرة المركّبة، التي تعمل على التفاعل بين العناصر الأساسية (العناصر الثلاثة)[2] الأولية للحضارة[3].

وفي سبيل تناول فكرة ابن نبي في دور الدين في بناء الحضارة، فإننا نتناول مفهومه للحضارة، ثم مفهومه للدين، ثم بعد ذلك نتناول رؤية مالك بن نبي للدور الحضاري الذي يقوم به الدين، لنصل إلى تحديد مفهوم الفكرة الدينية التي تحدث عنها ابن نبي ودورها الحضاري.

١. الحضارة في مفهوم مالك بن نبي:

وإذا جئنا إلى تعريف بن نبي للحضارة فإننا سنجد حضور الوعي بدلالات تعريفاتها اللغوية والاصطلاحية في السياقين الإسلامي والغربي، كما أنه استفاد من التراث العلمي السابق له في تحديد مدلول الحضارة وضبط مفهومها، غير أنه يتجه بها اتجاها آخر من خلال محاولة النظر إليها من زوايا متعددة لتحقيق أكبر قدر من الشمول في فهمها وإدراك حقيقتها.

ولهذا فإن بن نبي يعرف الحضارة من خلال النظر إليها من عدة جوانب؛ فهو تارة يعرفها من الجانب البنيوي (مركزا على بنية الحضارة وعناصر تركيبها)، وتارة من الجانب الوظيفي (مركزا على وظيفة الحضارة) باعتبارها تؤدي دورا في المجتمع، وتارة يعرفها من جانب غايتها من حيث أنها غاية الحركة الاجتماعية في التاريخ. وبعبارة أخرى فهو يعطي التعريف التحليلي للحضارة الذي يبيّن كيفية تركيب الحضارة في عناصرها الأولية، ويعطي تعريفا للحضارة من خلال دورها (وظيفتها) في التاريخ، كما يحدد حقيقتها الرسالية[4].

أما التعريف التحليلي فإننا نجده يعرف الحضارة من الوجهة التحليلية (تحليل بنيتها) بالمعادلة الرياضية التالية: الحضارة= إنسان+تراب+وقت. وفي ذلك يقول بن نبي: "حضارة = إنسان+تراب+وقت، وتحت هذا الشكل تشير الصيغة إلى أن مشكلة

---

[1] مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ترجمة: عمر كامل مستاوي، عبد الصبور شاهين، (دمشق: دار الفكر، ١٩٨١)، ص١٢، ١٣ وما بعدها.

[2] مالك بن نبي: **شروط النهضة**، ص ٤٧.

[3] بدران مسعود بن لحسن، **الحضارة الغربية في الوعي الحضاري الاسلامي**، (الجزائر: دار بن مرابط، ٢٠١٥)، ص٥٠.

[4] بدران بن لحسن، في مفهوم الحضارة. أنظر: http://ftp.islamtoday.com/nawafeth/artshow-40-3205.htm

جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي © 2015

الحضارة تنحل إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت. فلكي نقيم بناء حضارة لا يكون ذلك بأن نكدس المنتجات وإنما بأن نحل المشكلات الثلاثة من أساسها"[1].

فبن نبي يجمل أي جهد أو منتج حضاري، في صورة هذا التفاعل الأولي بين عنصر الإنسان صاحب الجهد المنجز، وعنصر التراب بصنوفه التي هي مصدر الإنجاز المادي، وعنصر الزمن الذي هو شرط أساسي لأي عملية إنجازية يقوم بها الإنسان[2].

وباعتبار أن الحضارة إنجاز موجه في التاريخ، فإنها – بدون شك - إنتاج لفكرة تطبع صبغتها على جهد الإنسان فتميزها في التاريخ، ولهذا لا يكتفي بن نبي بهذه العناصر التركيبية الأولية للحضارة فقط، بل يضيف إليها الفكرة المركّبَة: التي هي الفكرة الدينية (الدين)، مركّب القيم الاجتماعية، و يقوم الدين بهذا الدور في حالته الناشئة، حالة انتشاره وحركته، عندما يعبر عن فكرة جماعية[3]، أي لا يكون فكرة مجردة بعيدة عن صياغة همّ جماعي وأداءٍ اجتماعي مشترك.

هذه العناصر الثلاثة - كما يرى بن نبي - تتفاعل فيما بينها بفعل الشرارة التي تحدثها الفكرة الدينية، وتتحقق في واقع تاريخي يقتضي وجود مجموعة من العلائق تحقق وحدة العمل التاريخي، هذه العلائق هي ما يسميه بن نبي (شبكة العلاقات الاجتماعية)[4]. فشبكة العلاقات الاجتماعية هي العنصر التركيبي الآخر الذي يتحقق بوجوده الجهد الإنساني في صورة إنجاز حضاري في التاريخ[5].

فالحضارة من هذه الوجهة التحليلية تقوم على عناصر الإنسان والتراب والزمن، في وجود شبكة من العلاقة الاجتماعية التي تشكل الميلاد الحقيقي للمجتمع في التاريخ وبداية إنجازه التاريخي على ضوء الفكرة الدينية.

أما التعريف الوظيفي فإن بن نبي يقول بشأنه: "إن الحضارة يجب أن تحدد من وجهة نظر وظيفية، فهي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين، أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور، أو ذاك من أطوار نموه"[6]. فهي ذلك العمل الاجتماعي الذي يقوم به المجتمع في سبيل توفير الضمانات التي تؤهل الفرد لممارسة دوره في التاريخ.

فمن وجهة الوظيفة التي تؤديها الحضارة فإن بن نبي ينظر إلى الحضارة بمقدار ما تقدمه من الضمانات للفرد، تلك الضمانات التي يقدمها المجتمع لأي فرد من أفراده في مرحلة تاريخية معينة من مولده إلى مماته. أي إلى أن ينقضي وجوده الاجتماعي. هذه الضمانات هي بمثابة شروط ذات وجهتين مادية ومعنوية. وبعبارة أخرى أنها في الواقع جملة العوامل المعنويّة والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره. فالفرد يحقق ذاته بفضل قدرة وإرادة تنبعان من المجتمع الذي هو جزء فيه[7]. فالحضارة أداء اجتماعي لمجتمع ما في التاريخ.

---

[1] مالك بن نبي، **شروط النهضة** ، ترجمة: عبد الصبور شاهين،(دمشق: دار الفكر،١٩٩٦)، ص٤٥.

[2] بدران بن حسن، في مفهوم الحضارة، مرجع سابق.

[3] مال بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٦م)،ص٣٢.

[4] مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، الطبعة الثالثة، (دمشق: دار الفكر،١٩٨٦)، ص٢٧.

[5] مالك بن نبي، **فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ**، (دمشق: دار الفكر، ١٩٨١)، ص١٤٣.

[6] مالك بن نبي، **آفاق جزائرية**، (القاهرة: مكتبة عمار،١٩٧١)، ص٣٨.

[7] مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، (دمشق:دار الفكر،١٩٨٨)،ص٤٢.

جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي © 2015

فإذا كان مجتمع معين يستطيع في مرحلة تاريخية معينة تقديم وتوفير مثل هذه الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح للفرد أن يمارس دوره الطبيعي في المجتمع، فإن المجتمع يعيش حالة حضارة. وكأن بن نبي من هذه الزاوية يركز على الحقيقة الموضوعية التي تلتمس الحضارة في أثرها في الواقع، وتهتم بالمنظور الاجتماعي (السوسيولوجي) للظاهرة الحضارية[1].

ومن هذه الجهة (الوظيفية) فإن الحضارة هي أولاً شروط أخلاقية ومادية وهذا يجعل الحضارة خاضعة للتوازن الذي يحفظها من الانحراف، فإذا اختل جانب انحرفت الحضارة من هذا الجانب المختل، والحضارة ثانياً عمل اجتماعي، وهذا يشير إلى أهمية المجتمع وأسبقيته في عملية الإنجاز الحضاري، وذلك من خلال تركيز بن نبي على أهمية وجود عالم شبكة العلاقات الاجتماعية باعتبار أن الحضارة إنجاز يقوم به المجتمع بمجموع أفراده، ويتم في إطاره وبإرادته وإمكانه، حتى أنه يمكن القول أن الحضارة هي عمل شبكة العلاقات الاجتماعية ذاتها، وثالثاً أن الإنسان (الفرد) يأخذ أهمية خاصة من خلال اعتبار الحضارة من الوجهة الوظيفية عملية تقديم للضمانات لهذا الفرد حتى يتمكن من ممارسة دوره المنوط به اجتماعيا، ورابعاً أن الحضارة عبارة عن ضمانات إذا نظرنا إليها من هذه الوجهة، وهي ضمانات تتيح للطاقات الفردية والاجتماعية أن تنطلق وتمكن الفرد من التطور ماديا ومعنويا. كما أن الحضارة خامساً عبارة عن أطوار اجتماعية يمر بها المجتمع. وفي هذا إشارة إلى الظاهرة الدورية التي تمر بها الحضارة.

٢. الدين في مفهوم ابن نبي.

في هذا السياق: أي سياق تحديده لمفهوم الحضارة من وجهة تحليلية، ومن وجهة تركيبية، ومن وجهة وظيفية، وجدنا أن بن نبي يؤكد على اهمية الفكرة الدينية ودورها في توفير الوسط الذي تتركب فيه عناصر الحضارة. ولكن يبقى السؤال عن مفهوم الدين في فكر بن نبي، وكيف ينظر إليه بن نبي؟ فهل الدين سنة كونية؟ وهل هو سنة تاريخية؟ أم قانون يحكم الفكر؟

وإن الناظر في التراث الفكري لبن نبي يجد ان العناصر المذكورة أعلاه في صيغة اسئلة كلها حاضرة، وتمثل أبعاد رؤية بن نبي للدين.

أ. الدين ظاهرة كونية وسنة تاريخية:

يرى ابن نبي أننا حينما نتأمل القرآن "يبدو الدين ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبيةُ المادةَ، وتتحكم في تطورها. والدين على هذا يبدو وكأنه مطبوع في النظام الكوني، قانونًا خاصًا بالفكر، الذي يطوف في مدارات مختلفة، من الإسلام الموحّد إلى أحط الوثنيات البدائية"[2]. فهو قانون من قوانين الله عز وجل التي فُطرت عليها النفس الإنسانية.

لعل هذا النص يذكرنا بأن الدين أمر فطري في الانسان لا يفارقه، أوحى به الله منذ خلق قادم، بل منذ عالم الذر. كما انه من حيث التجربة تاريخية فإن البشرية لا تنفك عن التدين منذ فجر التاريخ إلى اليوم.

---

[1] بدران بن حسن، في مفهوم الحضارة، مرجع سابق.

[2] مالك بن نبي، **الظاهرة القرآنية**، ترجمة عبد الصبور شاهين، (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٤م، ص ٣٠٠.

جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي © 2015

وبتأمل الآيات والأحاديث النبوية نجد أن الفطرة شكلت في البداية أساساً لإقامة مجتمع التوحيد، وكان الإنسان -ممثلا في الجماعة الإنسانية كلها- يمارس خلافة الله على الأرض وفقا لذلك[1]: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣]. وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]. ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢].

فاتجاه الإنسان الفطري نحو التدين، اتجاه تكويني ذاتي، وجد مع الإنسان منذ بداية وجوده على هذه الأرض. وهذا الاتجاه يفسر قوة الدفع الأصلية والنزوع الذاتي، في تكوين الإنسان نحو التعبد والتقديس والاتجاه نحو مقدس عظيم، يعبر الإنسان عن شعوره، وأحاسيسه التعبدية نحوه[2].

ومن جهة أخرى فإنه يقوم في ذهن الإنسان تساؤل وجودي بصفة فطرية، فما يبدأ في التعامل مع البيئة الكونية تعاملاً عقليا حتى يرد على خاطره سؤال ذو ثلاثة نقاط أساسية: مأتى العالم، ومصيره، وحقيقة حركته فيما بين المأتى والمصير[3].

فالقرآن الكريم يعرض الدين، ليس على أنه تشريع فقط، بل على أنه سنة موضوعية من سنن الوجود، وقانون داخل في صميم تركيب الإنسان وفطرته، بل هو فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا يمكن تبديلها، ولا يمكن أن تنتزع من الإنسان لأنها جزء من أجزائه التي تقومه، فالدين ليس مقولة حضارية مكتسبة يمكن إعطاؤها ويمكن الاستغناء عنها، فهو لا يمكن أن ينفك عن خلق الله ما دام الإنسان إنسانًا، فالدين يعتبر سنة لهذا الإنسان[4].

ومن جهة اخرى، فإن بن نبي يرى أن الدين سنة تاريخية: بمعنى أنها من ثوابت تاريخ الإنسان، وأنه لم يخل التاريخ أبدا من وجود الفكرة الدينية عند أي أمة من الأمم أو شعب من الشعوب، بأي صورة من الصور. ولذلك فإن بن نبي يرجع إلى التاريخ باعتباره السجل الأمين للتحولات التي شهدتها البشرية، فيجد التاريخ يشهد أن الدين ثابت من ثوابت الشخصية الإنسانية، ليس هذا فحسب، بل إن الدين كان من وراء كل المنجزات البشرية.

ولهذا فابن نبي ينتقد نظرية (توينبي) في التحدي والاستجابة، لأنها وإن كانت تفسر قيام بعض الحضارات فإنها لا تفسر لنا قيام بعضها الآخر، كما ينتقد ما ذهب إليه (ماركس) ومدرسة المادية التاريخية، إذ أن من الحضارات ما لا يمكن أن نفسر قيامها بالعامل المادي، مثل الحضارة الإسلامية، وحتى الحضارة الغربية نفسها، كما ينتقد ما ذهب إليه دعاة التفوق العرقي، وقيام الحضارات على أساس العرق، ويقدم الدين بديلاً تفسيريًا لقيام الحضارات ومنجزاتها عبر التاريخ.

يقول ابن نبي: "كلما أوغل المرء في الماضي التاريخي، في الأحقاب الزاهرة لحضارته، أو المراحل البدائية، وجد سطورًا من الفكرة الدينية. ولقد أظهر علم الآثار دائمًا -من بين الأطلال التي كشف عنها- بقايا آثار خصصها الإنسان القديم لشعائره

---

[1] محمد باقر الصدر، **السنن التاريخية في القرآن**، (دار التعارف للمطبوعات، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، ص١٥٤.

[2] الفقيه، محمد جواد، **الإنسان والدين**، (بيروت: دار الأضواء، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م)، ص١١.

[3] عبد المجيد النجار، **خلافة الإنسان**، (هيرندن: المعهد العالمي للفكر الاسلامي، ١٩٩٣م)، ص٢٣.

[4] الصدر، **السنن التاريخية في القرآن**، ص٩٠-٩١.

جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي © 2015

الدينية، أيًا كانت تلك الشعائر"[1]، ليس هذا فحسب، بل إن الحضارات ما أشرقت إلا من أمثال الكعبة أو معبد سليمان، ومن هناك كانت تشرق هذه الحضارات لكي تنير العالم.

ولهذا يقرر أن الدين الذي هو التعبير التاريخي والاجتماعي عن هذه التجارب المتكررة خلال القرون، يعد في منطق الطبيعة أساس جميع التغيرات الإنسانية الكبرى، وإذًا فلن نستطيع أن نتناول الواقع الإنساني من زاوية المادة فحسب[2].

ب. الدين قانون يحكم الفكر:

وابن نبي لا يرى الفكرة الدينية نسقًا من الأفكار الغيبية فقط، ولا يقصرها على الدين السماوي فقط[3]، بل هي قانون يحكم فكر الإنسان، ويوجه بصره نحو أفق أوسع، ويروض الطاقة الحيوية للإنسان، ويجعلها مخصصة للحضارة[4]. وهي في نظره كل فكرة تقدم معبودًا غيبيًا ووعدًا أعلى، ابتداء من الإسلام الموحد إلى أحط الوثنيات[5].

ولهذا فهو يعقد فصولاً، خاصة في كتابه (شروط النهضة)، لتحليل دورتين من دورات الحضارة; هما الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية لاستخراج السر الذي دفع بكلتا الحضارتين إلى مسرح التاريخ، وتحديد الموقع الذي يمثله الدين في حركة الحضارة. وهو بتحليله لهذين الدورين ينتهي إلى تأكيد أن السر الكوني الذي يركّب العناصر الثلاثة الأساسية للحضارة; الإنسان والتراب والوقت، ويبعثها قوة فاعلة في التاريخ هو الدين.

فكلتا الحضارتين تنطلقان "من الفكرة الدينية التي تطبع الفرد بطابعها الخاص، وتوجهه نحو غايات سامية"[6]. بل أن ابن نبي نبي يرى أن هذا القانون الدافع للحضارة لا نجده في الحضارتين الإسلامية والغربية فحسب، بل يتعداه إلى بقية الحضارات التي سجلها تاريخ الإنسانية، كالديانة البوذية في الحضارة البوذية، والبرهمية في الحضارة البرهمية. أي أن كل حضارة في أساسها ذات مبعث ديني. ولا يمكن للحضارة أن تظهر في نظر ابن نبي "إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجًا، أو هي - على الأقل- تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام"[7].

ومن هنا فالحضارة تبدأ عندما يمتد نظر الإنسان إلى أفق أعلى من يومه وعن حقبته التي يعيشها، ومن هنا ينبغي علينا أن نتتبع تأثير الدين من خلال تركيبه بين العبقرية الإنسانية والشروط الأولية للحضارة، أي تتبع ذلك "الاطراد بين الفرد والفكرة الدينية التي تبعث الحركة والنشاط"[8].

---

[1] بن نبي، **الظاهرة القرآنية**، ص٦٩.

[2] بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ص ١٥٤.

[3] بدران بن حسن، **الحضارة الغربية**، ص٥٥.

[4] مالك بن نبي، **القضايا الكبرى**، (بيروت: دار الفكر، ١٩٩١م)، ص١١٠.

[5] بن نبي، **الظاهرة القرآنية**، ص٣٠٠.

[6] بن نبي، **شروط النهضة**، ص ٥٠.

[7] بن نبي، **شروط النهضة**، ص٥١.

[8] بن نبي، **شروط النهضة**، ص٦٧.

جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي © 2015

٣. الدور الحضاري للدين:

وإذا انتقلنا من تحديد مفهوم الدين وكيف يراه بن نبي غلى الحديث عن الدور الحضاري للدين، فإننا نجد ابن نبي يتحدث عن غاية الدين، ويتتبع عمل الدين في التاريخ من خلال تجربة الحضارتين الاسلامية والمسيحية، وكذلك النظر في الدور الاجتماعي للدين.

أ. غايتا الدين في ضوء القرآن:

يرى بن نبي أن الدين في ضوء القرآن له غايتان، فإن قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات: ٥٦)، يبين أن الدين غايته أن يربط الأرض بالسماء، وهو حين ينشئ الشبكة الروحية التي تربط الفرد والمجتمع بالله، فإنه في الوقت نفسه يبني شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتيح لهذا المجتمع أن يضطلع بمهمته الأرضية، وأن يؤدي نشاطه المشترك، وهو بذلك يربط أهداف السماء بضرورات الأرض.. فهذا القانون الذي بينته الآية، لم يرد أن يفصل الناس عن الأرض، ولكن أراد أن يفتح لهم طريقًا أعظم خيرًا ليضطلعوا بعملهم الأرضي[1].

من هذه الوجهة ينظر ابن نبي إلى الدين باعتبار أن له وظيفة الربط بالله عن طريق هذا الوضع الإلهي، كما أن له أن يفتح آفاقًا أوسع للإنسان حينما يربطه بأبعاد السماء، ويرفع بصره إلى ما بعد حياته الأرضية. فهناك غايتان للدين: ربط الصلة بالله، وبناء شبكة العلاقات الاجتماعية التي تدخل بالمجتمع دائرة الحضارة.

ب. كيف يعمل الدين تاريخيا:

وباعتباره يبحث عن القوانين التي تحكم التغيير الاجتماعي، وينظر في شروط البناء الحضاري، فإن ابن نبي يركز على الوظيفة الاجتماعية للدين، معتمدًا في ذلك على الاعتبارات النفسية الاجتماعية بالإضافة إلى الاعتبارات التاريخية[2]. فهو يختبر هذه الوظيفة من ناحيتين: من ناحية تسجيل الفكرة الدينية في النفوس، ومن ناحية تسجيل الفكرة الدينية في التاريخ، وهو ما بينه في كتابه (شروط النهضة)[3]. وهذا الاختبار لعمل الفكرة الدينية، جعله يختار دراستها في إطار دورتين حضاريتين مختلفتين، مختلفتين، هما: دورة الحضارة الإسلامية، ودورة الحضارة الغربية.

فمن الجانب التاريخي، يتتبع ابن نبي كيفية عمل الفكرة الدينية، من خلال الحقائق التاريخية المنقولة، أما من الناحية النفسية الاجتماعية، فإنه يتتبع بالتحليل والتركيب كيفية دخول الفكرة الدينية في بناء الشخصية الإنسانية، وكيفية دخولها في تركيب ثقافي معين، وكيفية إحداثها للتغيير الاجتماعي، ثم كيف تصبغ تجربة معينة من خلال إعطائها المبررات المتمثلة في المثل الأعلى[4].

وفيما يتعلق بالحضارة الغربية مثلا، فإن بن نبي تحدث عن المسيحية وبديلاتها الدينية واللادينية في الحضارة الغربية. وهو يقرن ميلاد الحضارة الغربية بتسجيل الفكرة المسيحية في النفوس.

---

[1] بن نبي، **ميلاد مجتمع**، ص٧٣.

[2] بن نبي، **شروط النهضة**، ص ١٣.

[3] أنظر: بن نبي، **شروط النهضة**، فصل أثر الفكرة الدينية في بناء الحضارة، وفصل الدورة الخالدة.

[4] بدوي بن حسن، **الحضارة الغربية**، ص٥٧.

جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي © 2015

يقول بن نبي: "إن الفكرة المسيحية قد أخرجت أوروبا إلى مسرح التاريخ. ولقد بنت عالمها الفكري انطلاقًا من ذلك. ومع عصر النهضة استعادت اكتشافها العالم الإغريقي فتعرفت على (سقراط) باعث الأفكار، و(أفلاطون) المؤرخ لتلك الأفكار، و(أرسطو) مشرعها. غير أن هذا العالم الذي التقت به ثانية وهي تقتفي أثر الحضارة الإسلامية قد اكتسى منذ (توما الأكويني) صبغة مسيحية"[1].

فالمسيحية تُعتبر في نظر ابن نبي دافعًا أساسيًا في تشكيل أوروبا ككيان حضاري، بالرغم مما أضيف إليها من بعد إغريقي. كما يؤكد ذلك (توينبي) نفسه، بأن المسيحية كانت مركبًا مهمًا من مركبات الحضارة الغربية، واعتبرها من الأديان الكبرى التي ارتبطت بحضارات تاريخية، فإذا كانت البوذية ارتبطت بالصين والهندوسية بالهند والإسلام بالحضارة الإسلامية، فإن المسيحية ارتبطت بالحضارة الغربية[2].

وابن نبي نفسه يحيلنا إلى الغربيين بقوله: "هكذا يجب أن نلتفت نحن إلى مختبر التاريخ ليدلنا على المركب الذي تدخل في تركيب العناصر الثلاثة: الرجل، والتراب، والوقت، كيما يكونها حضارة. ولا أريد هنا إطالة الكلام على تأثير الدين كعامل مركب للحضارة، فمن درس تاريخ الحضارة الغربية، (توينبي) أو (ماسيس)، يرى أثر الفكرة المسيحية في تركيبها"[3].

وهذا (برنال) في كتابه (العلم في التاريخ) عندما يتحدث عن حركة الإصلاح البروتستانتي يقول : "كانت الحركات التي قضت على الإقطاع والنفوذ الكنسي هي نفسها التي قضت على العبودية والأنظمة المتخلفة المتوارثة، وكما في السياسة كذلك في العلم حدثت ثورة على التقاليد، التي حررت عقل وإبداع الإنسان وأخرجته من الدائرة الضيقة التي كان مسجونًا فيها"[4]، وهذا هو الدور الذي كان ابن نبي ينظر إليه حيث أن "الفكرة المسيحية شكلت أنا الأوروبي أو ذاته، كما صاغت منظر أوروبا الذي نشهده في منتصف هذا القرن"[5].

وبما أن الفكرة الدينية تشكل الأنا، الفردي والجماعي، فإن هذه الفكرة المسيحية كانت المشكِّل الأول للفردية الأوروبية، والأنا المتفوق الذي كان يشعر به الغربي في بداية حملة التوسع الاستعماري الغربي في العالم، يقول (هانتنجتون): "المسيحية الغربية - الكاثوليكية أولاً ثم البروتستانتية- هي المميز التاريخي الوحيد الأكثر أهمية في الحضارة الغربية. وفي الحقيقة، خلال الألفية الأولى -ما صار يعرف اليوم بالحضارة الغربية- كان يسمى الغربي المسيحي. وهناك شعور مسيحي مشترك بين الغربيين يجعلهم يحسون بروابط بينهم تميزهم عن الترك والبيزنطيين وغيرهم"[6].

بل إن المسيحية كانت الفكرة الوحيدة، والدافع الأخلاقي الذي وظفته أوروبا -كما سبق- لغزو العالم، يقول ابن نبي: "في هذا المجتمع ذي الفضائل الجذبية الأثرة - التي سنت التعاون وجهلت سنة الضيافة- أودعت المسيحية (خميرة) التوسع الأخلاقي،

---

[1] بن نبي، **مشكلة الأفكار**، ص ٤١-٤٢.

[2] Arnold Toynbee, **Change and Habit**, (Oxford: One World Publications, 1992), pp. 161-183.

[3] مالك بن نبي، **تأملات**، الطبعة الخامسة، (دمشق: دار الفكر، ١٩٩١م)، ص ١٩٩.

[4] جون ديزموند برنال، **العلم في التاريخ**، ترجمة: شكري إبراهيم سعد، الطبعة الأولى، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٢م)، ج٢/ ص١٣٦.

[5] بن نبي، **ميلاد مجتمع**، ص ٥٦. والقرن المقصود عند بن نبي هو القرن العشرون الميلادي.

[6] Samuel Huntington, "**The West Unique Not Universal**" Foreign Affairs, November/ December 1996, p. 30.

جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي © 2015

الذي استخدم فيما بعد ذريعة للحروب الصليبية، وللمشاريع الاستعمارية"[1]. بل كما يرى (هانتنجتون) أن الغربيين في القرن السادس عشر لما انطلقوا في غزوهم للعالم، كان ذلك من أجل الله ومن أجل الذهب أيضًا[2].

ويستشهد ابن نبي بالتفسير الذي ذهب إليه عالم الأديان الألماني (كسرلنج) الذي يرى الحضارة الغربية الأوروبية باعتبارها تركيبًا مكونًا من روح المسيحية وتقاليد الجرمانية. ومن قبله المؤرخ الفرنسي (جيزو) الذي كان ينظر إلى الأشياء من هذه الزاوية نفسها قبل (كسرلنج) بقرن كامل[3].

كل هذا التأكيد من ابن نبي على أن المسيحية كانت المفعّل الأول لشروط الحضارة الأولية في الغرب، يدفعنا إلى التساؤل عن موقع اللادينية، أو بتعبير أصح ما موقع الماركسية ؟ وما موقع المادية من تفسيره لدور الدين ؟ أين الدين في التجربة الماركسية، بل وفي أوروبا الحداثة وما بعد الحداثة ؟

يرى ابن نبي أن المسيحية التي شكلت الغرب، ليست هي مسيحية عيسى عليه السلام والحواريين، وإنما هي المسيحية التي نمت في أوروبا وسجلت وجودها النفسي في الغرب بعد ثلاثة قرون من تسجيلها في التاريخ، وخضعت خلال ذلك كله إلى تشكيل خاص أدخل في تكوينها البعد الإغريقي واليهودي، مما يمكن أن نسميها الفكرة الإغريقية اليهودية المسيحية، وصارت تشكل الإطار النفسي الذي تتشكل فيه الخميرة الأخلاقية، وينمو فيه الأنا الغربي، فرديًا كان أو جماعيًا.. وبما أن الدين سنة مرتبطة بالوجود الإنساني كما سلف، فإن الفكرة الدينية تبقى تعمل، "وتقوم بدورها الاجتماعي ما بقيت متمسكة بقيمتها الغيبية... أي بقدر ما تكون معبرة عن نظرتنا إلى ما بعد الأشياء الأرضية"[4].

وعندما تفقد هذه القيمة الغيبية، فإنها تترك مكانها، أو تعمل بواسطة بديلاتها اللادينية نفسها[5]، وهذا ما حدث في الغرب، عندما كانت المسيحية لا تملك بعدًا غيبيًا متماسكًا، فإنها بقيت إطارًا أو بنية تحتية أنتجت الماركسية، التي هي في حقيقتها دين بمفهومها العام بما تقدمه من تفسير للنظرة الكونية، وبما تقدمه من وعود، وبما قامت به من ربط ودفع نفسي لمعتنقيها. فالمادية إذًا مفهومية دينية في حقيقتها حينما تطرح نفسها بديلاً للدين[6].

ج. الأبعاد الاجتماعية للدين:

إن الدين أو الفكرة الدينية بتعبير مالك بن نبي ينبغي النظر إليها من أوجه عدة؛ باعتبار الدور الذي تقوم به كعامل اجتماعي يؤثر في توجيه التاريخ[7]، من خلال تدخلها (أي الفكرة الدينية) في صياغة إنسان الحضارة وتوجيه القيم النفسية والاجتماعية.

---

[1] بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ص ٤٠.

[2] Huntington, **the West Unique Not Universal**, pp. 30-31.

[3] بن نبي، **شروط النهضة**، ص ٦٤-٦٥.

[4] بن نبي، **شروط النهضة**، ص١٤.

[5] بن نبي، **قضايا كبرى**، ص ٦٠-٦١.

[6] بن نبي، **قضايا كبرى**، ص ١١٠.

[7] بن نبي، **شروط النهضة**، ص١٢.

جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي © 2015

بمعنى أن ننظر إلى أثر الفكر الدينية في الدورة الحضارية معتمدا هذه المرة على الاعتبارات النفسية الاجتماعية بالإضافة إلى الاعتبارات التاريخية[1]. فالعنصر الديني بصفة عامة-فضلا عن أنه يغذي الجذور النفسية العامة على ما بينا- يتدخل مباشرة في العناصر الشخصية التي تكون الأنا الواعية في الفرد وفي تنظيم الطاقة الحيوية التي تضعها الغرائز في خدمة هذه الأنا[2].

غير أن هذه الفكرة الدينية لا تقوم بدورها اعتباطا، ولا تقوم بدورها بشكل اتفاقي، بل إن الفكرة الدينية لا تقوم بدورها الاجتماعي إلا بقدر ما تكون متمسكة بقيمتها الغيبية في نظرنا. أي بقدر ما تكون معبرة عن نظرتنا إلى ما بعد الأشياء الأرضية[3].

ولذا فإن التاريخ يخبرنا أن الفكرة الدينية كانت وراء التحولات الكبرى في التاريخ، لأن الكلمة لمن روح القدس، إنها تساهم إلى حد بعيد في خلق الظاهرة الاجتماعية، فهي ذات وقع في ضمير الفرد شديد، إذ تدخل إلى سويداء قلبه، فتستقر معانيها فيه، لتحوله إلى إنسان ذي مبدأ ورسالة. فالكلمة يطلقها إنسان تستطيع أن تكون عاملا من العوامل الاجتماعية حين تثير عواصف في النفوس تغير الأوضاع العالمية[4].

ومن وجه آخر، فإن الفكرة الدينية تشرط سلوك الإنسان حتى تجعله قابلا لانجاز رسالة محضرة. ولهذا فالدين "فضلاً عن أنه يغذي الجذور النفسية العامة، فإنه يتدخل مباشرة في العناصر الشخصية التي تكوّن الأنا الواعية في الفرد، وفي تنظيم الطاقة الحيوية التي تصنعها الغرائز في خدمة هذا الأنا"[5]. غير أن دور الفكرة الدينية لا يكتفي بالوقوف عند هذا الحد. فهي تحل لنا مشكلة نفسية اجتماعية أخرى ذات أهمية أساسية تتعلق باستمرار الحضارة.

فالمجتمع لا يمكنه مجابهة الصعوبات التي يواجهه بها التاريخ كمجتمع ما لم يكن على بصيرة جلية من هدف جهوده. وعلاوة على ذلك فالفكرة الدينية التي تشرط سلوك الفرد، فإنها تبعث في قلوب المجتمع بحكم غائية معينة (مفهوم آخرة) وذلك بمنحها إياها الوعي بهدف معين، تصبح معه الحياة ذات دلالة ومعنى. وهي حينما تمكن لهذا الهدف من جيل إلى جيل ومن طبقة إلى أخرى، فإنها حينئذ تكون قد مكنت لبقاء المجتمع ودوامه وذلك بتثبيتها وضمانها لاستمرار الحضارة[6].

كما أن الفكرة الدينية توفر الأرضية الأخلاقية أو القانون الأخلاقي الذي يسير عليه المجتمع، والذي به يمكن للمجتمع أن يؤسس لشبكة علاقاته الاجتماعية ويحفظها من التفكك، فكلما حدث إخلال بالقانون الخلقي في مجتمع معين حدث تمزق في شبكة العلاقات التي تتيح له أن يصنع التاريخ[7]. فالدين يتدخل في التركيب الاجتماعي في شكل قيم أخلاقية، متجسدة في العرف والعادات والتقاليد والقواعد الإدارية والمبادئ التشريعية[8].

---

[1] المصدر نفسه، ص١٣.

[2] بن نبي، **ميلاد مجتمع**، ص٦٦.

[3] بن نبي، **شروط النهضة**، ص١٤.

[4] المصدر نفسه، ص٢٢.

[5] بن نبي، **ميلاد مجتمع**، ص ٦٦.

[6] بن نبي، **شروط النهضة**، ص ٧٢-٧٥ بتصرف.

[7] بن نبي، **ميلاد مجتمع**، ص٤٩.

[8] المصدر نفسه، ص ٦٠.

جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي © 2015

أما من الجانب الروحي، فإن مالك بن نبي ينظر إلى العلاقة الروحية بين الله وبين الإنسان على أنها "هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، وهذا بدوره يربط ما بين الإنسان وأخيه الإنسان...فعلى هذا يمكننا أن ننظر إلى العلاقة الاجتماعية والعلاقة الدينية معا من الوجهة التاريخية على أنهما حدث، ومن الوجهة الكونية على أنهما عنوان على حركة تطور اجتماعي واحد... فالعلاقة الاجتماعية التي تربط الفرد بالمجتمع هي في الواقع ظل العلاقة الروحية في المجال الزمني"[1].

ولذلك يؤكد بن نبي أنه سواء كنا بصدد المجتمع الإسلامي أو المجتمع المسيحي، أم كنا بصدد المجتمعات التي تحجرت اليوم أو اختفت تماما من الوجود، نستطيع أن نقرر أن الفكرة التي غرست بذرتها في حقل التاريخ هي فكرة دينية. كما أن تطور الإنسانية هو ما يحدث من نمو في مشاعرها الدينية المسجلة في واقع الأحداث الاجتماعية، تلك التي تطبع حياة الإنسان وعمله على وجه البسيطة. سواء كان الإنسان الفرد من خلال تدخل الدين أيضا في تحديد العناصر الشخصية للفرد أو الأنا، أو في تدخل العنصر الديني كعامل تنظيم نفسي بدور رئيسي لا من حيث أنه يعمل في صورة مبادئ موجهة تنطبع في ذاتية الأنا لتصبح دوافع وقواعد للسلوك فحسب، ولكن لأنها كذلك تستطيع أن تتجلى في صورة تحريك مانع في بعض الظروف المرضية أو العصيبة[2].

خاتمة:

في الأخير، فإننا إذا اردنا إجمال الحديث عن الفكرة الدينية ودورها الحضاري، فإنه يمكننا القول كنتيجة لهذا البحث أن ابن نبي يستعمل مفهوم الدين باعتباره سنة كونية وتاريخية وقانونا يحكم الفكر، تلك السنة التي فطر الله عليها الإنسان، وأن الدين هو المركب الحقيقي لعناصر الحضارة وللقيم الحضارية، وهو الذي يعطي شرارة الانطلاق لتدخل الحضارة في التاريخ، وتتحقق في عالم الإنجاز من خلال توفير الوسط الذي يتشكل فيه أنا الفرد والمجموع، ومن خلال تدخل الدين في تنظيم فكر الإنسان وتوجيه طاقاته إلى غايات ما وراء أرضية (أخروية) تتجاوز به ضيق الزخم اليومي وذلك بتجسيد العلاقة الروحية بين الله والإنسان في صورة علاقة اجتماعية. وكذلك من خلال توفير القانون الأخلاقي الذي يمنح قيمة لما يقوم به الإنسان وما يحياه. وبهذا فإن للدين دورا حضاريا فعالا لا ينبغي إهماله إذا اردنا ان نصنع دورتنا الحضارية الاسلامية الجديدة. والله أعلم.

قائمة المصادر والمراجع:

١. بدران مسعود بن لحسن، الحضارة الغربية في الوعي الحضاري الاسلامي، (الجزائر: دار بن مرابط،٢٠١٥).

جون ديزموند برنال، العلم في التاريخ، ترجمة: شكري إبراهيم سعد، الطبعة الأولى، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر،١٩٨٢م)، ج٢.

٢. عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان، (هيرندن: المعهد العالمي للفكر الاسلامي،١٩٩٣م)

٣. مالك بن نبي، آفاق جزائرية، (القاهرة: مكتبة عمار،١٩٧٠).

٤. مالك بن نبي، تأملات، الطبعة الخامسة، (دمشق: دار الفكر،١٩٩٠م).

[1] المصدر نفسه، ص٥٢.

[2] المصدر نفسه، ص ٥٢-٦٦ بتصرف.

جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي © 2015

٥. مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، (دمشق: دار الفكر،١٩٨٤م).

٦. مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، (دمشق: دار الفكر،١٩٨٦).

٧. مالك بن نبي، شروط النهضة ، ترجمة: عبد الصبور شاهين،(دمشق: دار الفكر،١٩٩٦).

٨. مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ، (دمشق: دار الفكر،١٩٨٦).

٩. مالك بن نبي، القضايا الكبرى، (بيروت: دار الفكر،١٩٩١م).

١٠. مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، (دمشق:دار الفكر،١٩٨٨).

١١. مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة: عبد الصبور شاهين، الطبعة الثالثة، (دمشق: دار الفكر،١٩٨٦).

١٢. مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد لاصبور شاهين، (دمشق: دار الفكر،١٩٨٦م).

١٣. محمد باقر الصدر، السنن التاريخية في القرآن، (دار التعارف للمطبوعات،١٤٠٩هـ١٩٨٩م).

١٤. محمد جواد الفقيه، الإنسان والدين، (بيروت: دار الأضواء، ط٢،١٤١٣هـ١٩٩٣م).

١٥. Arnold Toynbee, Change and Habit, (Oxford: One World Publications, 1992).

١٦. Samual Huntington, "The West Unique Not Universal', Foreign Affairs, November/ December – 1996.

١٧. بدران بن لحسن، في مفهوم الحضارة: http://ftp.islamtoday.com/nawafeth/artshow-40-3205.htm

جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي © 2015